(٧)

عصر الإمبراطورية

بعد ١١ أيلول أُغرق العالم في مسلسل حروب ، ليس من الواضح أنه سيقف عند حدّ ترافق مع توسّع انتشار الوجود العسكري الأمريكي في مختلف المفاصل الاستراتيجية في العالم، وعلى مقربة من (أو فوق) منابع النفط.

لماذا؟ هل ما حدث في يوم ١١ أيلول يقتضي كل ذلك؟ ربما كان هذا السؤال هاماً، لأنه يفتح الأفق على سياق يفرض تحديد طبيعة الحرب الجارية، وحدودها، وكذلك يؤسس لتوضيح لماذا تحوَّلت هذه «اللحظة العابرة» إلى مبتدأ تاريخ. أو لماذا يُراد لها أن تتحول إلى مبتدأ تاريخ؟

سوف أوضِّح أولاً أن ما يجري ليس «حرب حضارات» رغم أن الدولة الأمريكية تحاول إظهارها كذلك وإن كان بشكل غير مباشر، عبر التركيز على دور «ثقافة محدّدة» في إنتاج التعصب والتطرف! وبالتالي الإرهاب يميل الإعلام «وبعض المنظرين» إلى تصويرها –أحياناً– كحرب ضد الإسلام، أو العرب، رغم أنها –رسمياً– «حرب ضد الإرهاب» ، وقد رسم هينتنغتون مجالات الاحتكاك في العالم– وبالتالي الحروب– انطلاقاً من الانقسامات الحضارية «الغرب، الأرثوذوكسية، الكونفوشيوسية، الإسلام» ، منوهاً إلى خطر الحضارتين الأخيرتين. وأوضح ثانياً إلى أنها ليست ردّ فعل على ما حدث في ١١ أيلول ٢٠٠١ رغم أن الحدث كان المدخل وعنصر الحشد ، والتحريض ، والتحالفات. فهي جزء من استراتيجية تبلورت مع نهاية الحرب الباردة، أسماها جورج بوش الأب «النظام

العالمي الجديد» ، وبدأ تنفيذها عملياً في حرب الخليج الثانية ، وامتدت إلى البوسنة ثم إلى يوغسلافيا السابقة أشير إلى أن هذه الإشارة يجب ألا تعزز «عقلية المؤامرة» أو توحي بها بل يجب أن توضح «حدود المصالح»، وبالتالي ميول الرأسمالية - الأمريكية خصوصاً - كونها توسعية بالأساس، وكونها مأزومة تالياً، ولهذا فهي ترى أن حل المستويين يفرض «استراتيجية سيطرة».

إننا - إذن - إزاء إعادة صياغة عالم ما بعد الحرب الباردة، وإذا كانت المصالح في عمقها، والسيطرة «المبنية على الاحتلال» هدفها، فإن الحرب هي وسيلتها.

وهنا يجب أن نلاحظ أن الطابع الأميركي هو المسيطر فيها، وبالتالي فهي حرب الرأسمالية الأمريكية ضد العالم، وهذا ما وسم العولمة بالأمركة، كما يجب أن نلاحظ أن عنصرين حكما إعادة الصياغة هذه:

أولهما: التفوق الأمريكي المطلق عسكرياً، حيث تراجع وضع روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، ولم تعد قوة مكافئة كما أن الصين لم تبلغ بعد مستوى المواجهة. وأوروبا لم تطور طيلة الحرب الباردة قوة مستقلة، لأنها اعتمدت على القوة الأمريكية في حماية ذاتها وهكذا اليابان بينما كانت البحوث العسكرية ، وتطوير القوة العسكرية جزء من آلية لتفعيل الاقتصاد الأمريكي. وفي الوقت نفسه جر الاتحاد السوفيتي إلى سباق تسلّح مدمِّر، وأوجد قوة عسكرية أمريكية مذهلة التفوق.

ثانيهما: أزمة الاقتصاد الرأسمالي عموماً «المحدَّد» بظاهرة الركود الطويل (٩٦٨- ٠٠٠) والاقتصاد الأمريكي خصوصاً حيث استمرار العجز في الميزان التجاري وفي الميزانية والمديونية المتضخمة (التي تصل إلى أكثر من نصف دخلها القومي)، ومن ثمَّ أزمات إفلاس الشركات الاحتكارية وانهيار أسواق الأسهم. كما تصاعد الحاجة إلى النفط والأسواق لتصدير السلع والرأس مال.

لهذا غدت الرؤية الأمريكية (التي هي رؤية الشركات الاحتكارية الأمريكية خصوصاً شركات النفط، والمجمَّع العسكري الصناعي، وكذلك الرأس مال المضارب) هي الرؤية المعتمدة أو المرشحة للتنفيذ.

وغدا الدور الأمريكي هو الدور المركزي، وأصبحت الدولة الأمريكية هي المعنية عملياً لتحقيق هذا «النظام العالمي الجديد». ولا شك في أن وجود ممثلي هذه الاحتكارات في السلطة مع بوش الأب وبوش الابن، ولكن مع كلينتون أيضاً كان يجعل الدولة للأمريكية هي قوة الفعل المباشر سواء كسمسار تجاري، (وهذا كان واضحاً مع كلينتون) أو كمحارب وفاتح «فاتح أسواق» إن «الحرب ضد الإرهاب» هي إذاً «حرب تقليدية» من أجل المصالح المتّمثلة في «فتح الأسواق» والسيطرة على النفط، لكنها ليست ضد دول رأسمالية أخرى ، كما كانت في الماضي «الحربان العالميتان الأولى والثانية»، بل ضد «الدول المارقة» ، و«الدول التي تأوي الإرهاب»، و«الدول التي تسعى لامتلاك أسلحة الدمار الشامل»، رغم أنها تستهدف رأسماليات أخرى، «الأوربية واليابانية»؛ لأن احتكار الأسواق والنفط أمريكياً يضعف مواضعها، وبالتالي يتبعها بالرأسمالية الأمريكية كهامش.

سيبدو الهدف، هدف الحرب الطويلة والمتسعة، هو ما يمكن أن يسمى: «بناء امبراطورية عالمية»، يكون محورها «حكومة دكتاتورية عالمية» هي الدولة الأمريكية ذاتها.

في هذا الشكل «الإمبراطوري» يخضع العالم لحكومة واحدة ، وبالتالي يخضع لتشريعاتها ، وقوانينها ، وإدارتها ، وقراراتها ، وسياستها، وفيه يلعب الجيش الأمريكي دور الشرطي ، ودور المهيئ لـ«مناخ أمني دولي» مؤاتٍ لـ«المصالح القومية الأمريكية». وتعبير المناخ الأمني الدولي هو المرادف للسيطرة والاحتلال،

لأنه يعني الإخضاع لمنطق المصلحة الأمريكية عبر القوة وبالتالي لفرض بشروط الاحتكار الاقتصادي. وسنلاحظ تزايد الميل في البنتاغون - نهاية الحرب الباردة- توسيع التواجد الأمريكي في العالم عبر إقامة «مراكز» عسكرية «أي قواعد احتلال» في كل المواقع التي تعتبر من وجهة النظر الأمريكية مواقع استراتيجية، وذات أهمية، كما في كل المناطق المفيدة اقتصادياً، مثل منابع النفط.

إننا إزاء عودة إلى أشكال من السيطرة بدا وكأنها انتهت بنهاية الاستعمار. رغم أن هذه العودة، التي تقوم على الوجود العسكري، لا تزال تتداخل وطبيعة العلاقات التي سادت خلال مرحلة الحرب الباردة، والقائمة على اللا تكافؤ، والتبعية الاقتصادية، والنهب؛ لتتشكل «إمبراطورية عالمية» عمادها الوجود العسكري الأمريكي الماسك بكل مفاصل العالم، وواقعها هيمنة الشركات الاحتكارية الأمريكية، في إطار سوق اقتصادي منفلت في الأطراف ومضبوط في المركز/ أمريكا، وفي إطار «دولة أقل»، وسيادة أقل وتماسك أقل في الأطراف، ودولة أقوى وسيادة أقوى في المركز/ أمريكا (وربما بعض الدول الرأسمالية الأخرى)، وتفكيك الدولة / الأمة وتفتيت الأمة في الأطراف. وتهميش للهيئات الدولية سواء تلك التي تهيمن عليها الدولة الأمريكية (الصندوق والبنك الدوليان)، وتحويل مجموعة السبعة «G7» إلى مجلس استشاري، ومكان لتوزيع الحصص.

هذه الصيغة تشير إلى تغيّر عميق في التكوين الدولي، يتجاوز القانون الدولي السائد منذ زمن طويل، أو الذي كرّسته هيئة الأمم المتحدة، أو الذي تكرّس بفعل موازين القوى خلال سنوات الحرب الباردة، ونهوض حركات التحرر الوطني، وهذا التغيّر هو الذي يعطي المبرّر لتسمى «الإمبراطورية» لهذا الشكل الذي يفرض على العالم بالقوة، حيث هناك دولة المركز / واللادولة/ في الأطراف.، ويمكن

تلمّس هذا التغيير في المسائل التالية:

نهاية عصر مبدأ «حق الأمم في تقرير مصيرها»، وسيادة الدولة القومية، والاستقلال.

نهاية عصر مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للأمم وبالتالي رفض تغير الأنظمة من الخارج وبالقوة.

نهاية عصر حق الدول في السيطرة على مواردها (وبالأساس منها المواد الأولية)، وحق حماية اقتصادها الوطني.

حيث سنلمس أن سياق العقد الماضي منذ انهيار المنظومة الاشتراكية، وحرب الخليج الثانية (سنة ١٩٩١) أفضيا إلى تكريس «حق التدخّل الإنساني»، الذي أسس لتكريس حق التدّخل باسم «الحرب الوقائية»، وبالتالي إلى بدء فرض «حق تغيير الأنظمة»، وحق التدخل في ثقافاتها، ونظمها. فهذه ـ وربما غيرها كذلك ـ من مهمات المركز بداهة حينما يتحولّ العالم إلى إمبراطورية.

قلت: إن هذا «النظام العالمي الجديد» المتداول باسم «العولمة»، والذي، عبر التحليل، يؤسس لـ«الإمبراطورية»، قد بدأ مع حرب الخليج الثانية ضد العراق، ثم الحرب على يوغوسلافيا، وإضافة إلى التدخلات المتعددة، طيلة العقد الأخير من القرن العشرين، بدء «الحرب ضد الإرهاب» من أفغانستان، وتشمل «محور الشر» «أي العراق، وإيران، وكوريا الشمالية»، ولن يكتمل التحقيق إلا عبر تحجيم الصين، والخلاص من خطر روسيا، وإلحاق أوروبا واليابان.

جريدة السفير

٢٠٠٣/٢/٣